أغراض الشعر العربي في الأندلس وشبه القارة الهندية (في القرن السابع والثامن من الهجرة) دراسة مقارنة.

*د۔رحمی عمران

ABSTRACT:

The Arabic poetic heritage of Andalus and Indian Subcontinent is a gem worthy to stand on its own as an outstanding poetry of ancient Arabic poetry in Spain and Indian Subcontinent. These outstanding poems of Muslims settled in Spain are distinctively different from the Arabs of the Orient in its innovative form, structure, themes and stunning imageries. The Andalusian poetry is appealing and enduring beauty whose glow still reaches us not only in Arabic language but also in other languages.

So the upcoming article shall provide a comparison between the idea of this poetry which is more beautiful than the west wind and its language is more beautiful than a pretty face and it has come down to us "in the fragments , shattered , although in iridescent diamond dust.

الشعر في الأندلس امتداد للشعر العربي في المشرق ، فقد كان الأندلسيون يتعلقون بمشرق العرب ، و كانوا متأثرين بكل جديد فيه عن طريق الأندلسيين الذين يفدون إلى الشرق للحج أو لطلب العمل ، فكانت حبال الود و شائج القربى قوية بين مشرق العالم الإسلامي و مغربه و كان الأندلسيون ينظرون إلى الشرق و ما يأتي منه نظرةَ إعجاب وتقدير ، فكانوا في غالب أمرهم مقلدين للمشارقة ويبدو ذلك واضحاً في ألقاب الشعراء وفي

* الاستاذة المساعدة بقسم اللغة العربية جامعة بهاء الدين ملتان

معارضاتهم لشعراء المشرق ولكن هذا التقليد لم يمنعهم من الإبداع والابتكار والتميز بميزات تخصهم نتيجةً لعوامل كثيرة، البِيئة الأندلسية الجديدة الجميلة طبعت الأدب الأندلسي بطابع خاصٍ.

فأمّا الشعر العربي في شبه القارة الهندية فلم يَعْكُس العُمق الحضاري الذي تيسر له بعد أن التقت على تراب أرضه حضارة فارس العريضة بحضارة الهند الخصيبة وكان يُوسّع أدبائه الاستفادةَ من الأدب الفارسي وأخيلته وتنوع موضوعاته شعراً ونثراً، وتلقيحه بالآداب الهندية وأخيلتها، وانتاجها العريض المنظوم والمنثور.

واختص الشعر العربي في شبه القارة في القرن السابع والثامن بتقليدية الموضوعات في أغلبه فَمَدْح الرسول صلى الله عليه وسلم والأصدقاء والأمراء ورثاء الأحبة وأبناء الأمراء والسلاطين والزهد والعرفان هي الموضوعات الأساسية التي شكلت العمود الفقري للشعر العربي في شبه القارة ولتحقيق هذا الغرض خصَصْنَا مجال المقارنة ببعض الأغراض الشعرية المذكورة في كلا البلدين فنختار منها المدح ، المدائح النبوية، وصف الطبيعة، الرثاء، الاستنجاد، الغزل والموشحات. وإذا نتصفح في شعر القرن السابع والثامن لشبه القارة الهندية والأندلس نجد العديد من الفروق على النحو التالي:

أولاً: الأفكار والمعاني:

يمتاز الشعر الأندلسي من الشعر في شبه القارة الهندية في ألفاظه ومعانيه وأخيلته بسمات تَبدو واضحة في مُجْمَلِهِ، ومنها:

١ - وضوح المعاني، والبعد عن التعقيد الفلسفي أو الغوص في المعاني وتشقيقها.

٢ - سهولة الألفاظ وسلاستها ، والبعد عن التعقيد والغموض وذلك ناتج عن بساطة الأندلسيين وبعدهم عن التعقيد في كل شيء. ويستثنى من ذلك شعر ابن خبّازة وابن عبدون المكناسّي فهما يقربان من شعر المشارقة من حيث الجزالة والقوة.

٣- قلة الدخيل والألفاظ الأعجمية، فقد لاحظ الدارسون أن الأندلسيين أكثر تمسكا بالعربية الفصحى من غيرهم.

٤-التجديد في أغراض الشعر والتفوق فيها ويَبْدو ذلك واضحاً في رثاء الممالك الزائلة، وفي وصف الطبيعة.

٥-الخيال المجنح , وبراعة التصوير , والاندماج في الطبيعة.ووصف مناظرهاالخلابة, وذلك أثرمن آثار جمال الطبيعة الأندلسية وتعلق الأندلسيين بطبيعة بلادهم, وانعكاسِ ذلك على شعرهم سواءٌ من ناحية الألفاظ المنتقاة أو الخيال أو التصوير والتشخيص.

6-التجديد في الأوزان, وذلك باختراع الموشحات.

7-البعد عن المُحَسَّنات اللفظية المتكلَّفَة والمبالغة , وبُرُوْزِ التشبيهات الجميلة والاستعارات الدقيقة وحسن التعليل.

فأماشاعر شبه القارة لهذا العصر فهو كثير الإهتمام بالألفاظ تبعا لفحول الشعراء العرب وتقليداًلهم ولذا كان الشعر العربي لهذاالعصر عربيا من ناحية الألفاظ والتراكيب , وأما الأفكار فكانت مُصْتَبَغَةً بِصِبْغَةٍ محلية وكذا الشاعر الأندلسي فإنه قدتقلد في الألفاظ والتراكيب بشعراء المشرق العربي وأما الأفكار فإنها كانت خاصةً لتلك البلاد. فمن هذه الجهة نجد التشابه في الطبع والتقليد عند الشعراء في كلا البلدين.

ثانياً:الأوزان والقوافي:

أكثر الأندلسيون مِنْ نَظْمِ الشعر في البحور الخفيفة القصيرة لتناسبها مع حالة الترف واللهو وحب الغناء الذي انتشر في مجتمعهم فجاؤوا بمقطوعات رشيقة أنيقة حتى ضاقت الأوزان والعروض عما تقتضيهِ رقة الحضارة وانتشار الغناء فَاسْتَحْدَثُوا الموشحات. وإذا وقفنا عند البحور التي اختارها الشعراء في هذا العصر, فإنّنا نجدهم مقلدين للنهج الذي سار عليه الشعراء المتقدمون, فهم يلجؤون في أغلب أشعارهم إلى بحور الطويل والكامل والبسيط . وأثناء تَتَبُعِنَا الأشعار المشهورين منهم كابن الخطيب , ابن زمرك , ابن خاتمة الأنصاري , والملك يوسف الثالث , فقدوجدنا أن الغالب في قصائدهم قدنسج على هذه البحور الثلاثة , وكانت النتائج على النحو التالي:

ابن الخطيب: عنده مئةوثمان وسبعين قصيدةًعلى البحر الكامل ومئتين وخمس عشرة قصيدة على البحر الطويل , وواحدةوتسعين قصيدة على البحر البسيط وسبعاوأربعين قصيدة على البحر الوافر , واثنتين

وعشرين قصيدةعلى البحر المتقارب ، وأمابقية القصائدو المقطوعات ، وعددها مئة وثمانون ، فقدجاءت على بقيةالبحور كالسريع والمنسرح والرمل والرجز والخفيف والمجتث[1].

ابن زمرك : جاءمعظم شعرهِ على ثلاثةأوزان وهي : الكامل والطويل والبسيط ، وبلغت نسبة الكامل ٤٢% ، والطويل٤٤%،والبسيط ١٠ %،والبقيةمن أشعارهالبالغة٣%جاءت على بقيةالبحور[2].

الملك يوسف الثالث : جاءت أشعاره في معظمهاعلى هذه البحور الثلاثةوهي : الطويل والكامل ، والبسيط، حيث بلغت في مجملها مانسبته٧٠٪[3].

فأما الشعراء لشبه القارة الهندية في هذا العصر ، فإننانجدهم مقلدين الشعراء العرب فهم يلجؤون في أغلب أشعارهم إلى البحور المتداولة عندهم عادة وهي كالتالي:

وقدوجدنا أن الغالب في قصائد عبدالمقتدر الشريحي الكندي ، أمير خسرو وأحمد التهانيسري قدنسج على هذه البحور.

عبدالمقتدر الشريحي الكندي:

كانت قصيدته اللامية التي ذكرها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم في البحر البسيط واستخدم هذا البحر في معظم أشعاره. ويقول في قصيدته اللامية يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم:

ياسائق الظعن في الأسحار والأصل سلم على دار سلمى ثم سل

عن الظباء التي من دأبها أبدا صيد الأسود بحسن الدل والنجل

امير خسرو:

جاءت أشعاره ومدائحه على بحر الرجز الذي برع فيه ، في قصيدته التي يمدح بها السلطان علاء الدين الخلجي حيث يقول:

من جوده الفياض قد يحكي إذا نغب الغراب قلبي رميم الحاتم

ما كان يعطش سيفه بقرابه إلا ويسقي من كؤوس جماجم

الشيخ أحمد التهاينسري:

جاءت قصيدته الدالية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم على بحر الطويل وحيث لم نجد له سوى هذه القصيدة التي اقتفى أثر استاذه في نظمها حيث يقول:

أطار لبي حنين الطائر الغرد وهاج لوعة قلبي التانه الكمد

واذكرتني عهودا بالحمى سلفت حمامة صدحت من لاعج الكبد

والمراد من "القوافي "هي آخر حرف ساكن في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله ، مع الحرف الذي قبل هذا الساكن.[4] وقد اختلف الباحثون في حقيقة القافية وعدّها الأخفش بقوله: إنها آخر كلمة في البيت ، ومنهم من يرى أنها حرف "الرويّ" في آخر البيت ،[5] والقافية ليست إلاّ عدّة أصوات تتكرر في أوَاخِرِ الأشْطُرْ أو الأبيات من القصيدة ، وتكرارها هذا يكون جزءا هامًّا من الموسيقىَ الشعريّة، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي تتردد في فترات زمنية منتظمة[6].

وتتركز القافية بشكل أساسي على حرف "الرَوَيّ" وهو الحرف الذي تُبنى عليه القصيدة وتنسب إليه.[7] ولا يخفى علينا أنَّ للرّوِي دورا بارزاً في إضفاء النغم على القصيدة، فالشعر يحسن وقعهُ على السمعَ لحُسن وَقْعِ قَافِيّته ، ويسوء وقعُهُ لِضَعْفِ قافيته ، وَسُوءِ وقعِ رويّهِ حتى ولو كان يتضمن المعاني البليغة والصور الشعرية الرائعة.

وإذا كان لكل بحر صفاتٌ تُلائِمُ غرضاً من الأغراض الشعرية، فالأمر كذلك بالنسبة إلى الرَوِيّ، فلايَحسُنُ استعمال القاف، مثلاً رويًّا في قصيدة غزليّةٍ لأنه حرف استعلاءٍ يُتَّصَفُ بِالشِّدَّةِ ويجود في غرض الحرب والقتال. ولهذا جاء استخدام حروف الرَوَيّ بما يتناسَبَ مع الحالة الشعورية التي يعيشها هؤلاء الشعراء فابن زمرك يلجاء إلى الأصوات المهموسة في أغلب مراثيه، وله في هذاالغرض أربع قصائد : ثلاث منهاجاء رَوَيُها مَهْمُوساً، ومنها ماجاءفي رثاء "الغني بالله" حيث يقول:

عزاءً فإن الشجو قد كان يُسرِفُ وبِشرى بها الراعي على الغور يشرف

لئن غَرب البدرُ المنيرُ مُحَمَّدٌ لقد طلعَ البدرُ المكمّلُ يُوسُفُ

ونرى ابن زمرك يبدأ قصيدته بقول :(عزاءً)، وهو مفعول مطلق حُذف عامله، وجاء هنا للطلب[8]. فهو يبحث عن شيء يخفف عن مصابه وآلامه، ولم يجد ماينفسُ عنه هذه الآلام سوى الشكوى التي أطلقها مستخدماً الصوت المهموس الذي عبّر عن أحاسيسَ مكبوتة أُرِيْدَ بِهَا أن تخرج لَعَلَّها تكون بلسماً شافياً لنفسهِ. وإذا مانظرنا إلى بقية القصيدة، نرى أن صوتي السين والشين قد ترددتا كثيراً بين ثناياها، إضافةً إلى رَوَيّ الفاء الذي يلتقي معهما في الهمس .وهناك من الشعراء من جاءت مراثيه مجهورة الروّي، ومن هذا ماجاء عند علي بن عمر القيجاطي حيث يقول:

حَمَامُ حِمَامُ فوق إيك الأسى تشدو تهيج من الأشجان ما أوجَدَ الوجْدُ

وذلك شجوٌ في حناجرنا شجيً وذلك لهوٌ في ضمائرنا جدٌّ

أرى أرجلَ الارزاء تشتدُّ نحونا وأيديها تسعى إلينا فتمتدُّ[9]

فَهذِهِ المَرْثِيَةُ اعْتُمِدَتْ على رويّ مجهور، وهو حرف الدال، ويأتي استخدام الحروف المجهورة بما يتناسب الحالة التي يعيشها الشاعر ،فالعاطفة الجياشة واضحة في الأبيات حيث يقول : تشدو، تهيج ، شجوٌ في حناجرنا ، وجاء رويّ الدال حرفاً مَضَعَّفاً ، ليَزيدمن الحالة الترديد لهذه الصرخات.

وفي مقابل هذا فإننا نرى أن الشعر السياسي قد اُعتُمِدَ في معظم قصائده على الأصوات المجهورة ، فالاستنجاد والدعوة للقتال يتناسب مع الجهر ، فالمقام يتطلب الأصوات المسموعة ذات الرويّ الشديد ومن هذا ما جاء في استنجاد الملك يوسف الثالث ببني مرين حيث يقول:

أبني مرين والحمايةَ شأنُكم وبكفِكُمْ سيفُ الجهادِ يُجرّدُ

إنّ السَّعيد إذا تمهّد ملكهُ عُدْتُم لنا والعَوْدُ منكم أحمدُ

أَوطَانك أخوانك وبلادكم عُودوا وعهدكم القديمَ فجددو [10]

والشاعر في هذه الأبيات يطلق صرخة موجّهة إلى إخوانه من بني مرين، فالجهاد عنده فرض عين لايسقط كماهو الحال في فرض عين لايسقط كما هو الحال في فرض الكفاية ، ولهذا جاءت دعوته قويّة ومدويّة، واستخدم المعاني التي تدعو للعودة إلى الجهاد في قوله (عُدْتم ، العَوْد ، عُودوا) وإلى جانب هذا فقد جاء رويُّ القصيدة حرف الدال، وهو صوت شديد مجهور .ونلحظ أنّ رويَّ الراء ، قد ورد في جميع الأغراض ، فقد رأيناه في المديح والرثاء والغزل وغير ذلك من الألوان الأخرى.

وأما إذا نطالع الشعر الأندلسي وشعر شبه القارة الهندية في هذا الصدد، فنجد أن شعراء الأندلس قد استخدموا غير البحور والأوزان والقوافي التي استخدمها شعراء شبه القارة، فوصلنا إلى نتيجة أن البحور المستخدمة تختلف كل الاختلاف لكلا البلدين.

ثالثاً: الألفاظ والتراكيب:

أ- الألفاظ : نجد في هذا العصر أن شعراء شبه القارة قد أكثروا في استخدام الألفاظ والكلمات الغريبة بالعكس من شعراء الأندلس فإنهم رجحوا باستخدام الكلمات والألفاظ السهلة والعذبة وذلك لأن استعمال الكلمات والألفاظ الغريبة يفقد به الجمال إذ أن الشاعر الأندلسي كان يهتم باستخدام الكلمات والألفاظ السهلة الرقيقة العذبة، خالية من الغرابة والخشونة في شعره.

ب- التراكيب : سَلِسَة مُحْكَمَةٌ الصياغة بعيدة عن التعقيد لايَظْهَر فيها أثر لغموض أو التواء أو خلل لأنهم لم يحملوا التراكيب مالا تطبق من المعاني المزدحمة، فجاء أكثر شعرهم جاريا مع الطبع من غير تكليف أو تصنع.

رابعاً: الصور والاخيلة:

أبدعَ الأندلسيون في هذا الجانب أيَمَا ابداعٍ، وكان لهم فيه الظهور والتفوق على غيرهم، فقد برعوا في التصوير ، واغرقوا في التخيل تعاطفوا الشعراء مع الطبيعة الخلابة ، وتحاوبوا مع الحضارة المترفة، وانعكس ذلك على شعرهم فأتوا بالتشبيهات الرائعة، والاستعارات الدقيقة والتشخيص الممتع، الذي يبث الحركة والحياة في الجمادات وغيرها فإذا الأشجار تتكلم، والورود تبتسم، والأزهار تخجل، والبحار تُزَار وإذا المطر يتخذ الروض صديقا وصاحبها ،

والشمس تمد زراعيها إلى الأرض . وأيضا امتاز الأندلسيون على شعراء شبه القارة الهندية . باختراع الموشحات وإن كانت قد انتشرت بعد ذلك في مشرق العرب . ولكن لانجد مثل هذا الإبداع الأندلسي في الشعرالعربي في شبه القارة الهندية ، حيث أنه يغلب عندهم التقليد وَالإتباع.

الهوامش

1- الديوان، ابن الخطيب، 2/٨٢٣.

2- ابن زمرك سيرته وأدبه، سليم الحمصي، ص٢٤٤.

الفخر عند الشاعر يوسف الثالث، محمود مصطفى، ص١١٥

موسيقا الشعر العربي: محمود الفاخوري، ص١٣٧ .

3- علم العروض والقافية: عبد المنعم أسعد: ص ١٢٩ .

4- موسيقا الشعر، إبراهيم أنيس، ص٣٤6.

الأصول الفنية لأوزان الشعر العربي، محمد خفاجي، ص ١٢٩

5- الديوان: ابن زمرك، ص ١6.

الاحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين ابن الخطيب، ص٨٣

10- الديوان: الملك يوسف الثالث، ص٥١

المصادر والمراجع

1-الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م

2-الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: ابن أبي زرع: ،ت الفيلالي، 1843م.

3-الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون. دار الكتب العلمية، بيروت، 1424

4- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية : أمير شكيب أرسلان، المطبعة الرحمانية بالقاهرة 1936م.

5-الثقافة الإسلامية في الهند: عبد الحي الحسني، طبعة دمشق 1987م.

6-الشعر والشعراء، قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٩١٧م.

7-الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، الدكتور حكمة علي الأوسي، القاهرة ١٩٧٩م.

8-الشعر الأندلسي الترجمة العربية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥6م

9-النوادر في اللغة، الأنصاري (أبو زيد): .دار الكتب العلمية، بيروت، ١٨٩٤م

10-الموشحات الأندلسية: دكتور فؤاد رجائي، حلب، سورية، .1955

11_ تاريخ الطبري ، ومابعدها ،تحقق محمد أبو الفضل إبراهيم ،سلسلة ذخائر العرب دار المعارف بمصر - ذخائر العرب ، الابياري ، ابراهيم:. الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٥٧م

12_تاريخ الأدب الأندلسي(عصر ملوك الطوائف والمرابطين)، احسان عباس: دار الشروق للنشر، الأردن، ١٩٩٧م

13_تهذيب اللغة–ابواب العين والراء–مادة العرب، الأزهري (أبي منصور محمد بن أحمد): دار المعارف، مصر، 1384ه-1964م

14-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصفهاني (حافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله): دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ

15_ حلية الفرسان وشعار الشجعان ، الأندلسي(علي بن عبدالرحمن بن هذيل): دار الهلال، القاهرة، ١٩٤٩م.

16_ دولة الإسلام في الأندلس :محمد عبدالله عنان ، "طبعة مؤسسة الخانجي بمصر، 1960م"

17-طبقات الأمم، الأندلسي، صاعد، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣

18_غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزرى، دار الكتب العلمية ببيروت 1982م.

19_فصول في الأدب الاندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، الاوسي (حكمة علي. ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧6م

20_فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي،، القاهرة ١٩٥٣.

21-فضائل الأندلس وأهلها. نشر وتقديم: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٨م

22-قلائدالعقيان،باريس.دارالهلال،القاهرة،١٣٢٠ه

23- لسان العرب، ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم):.ط٣، دار صادر، بيروت،١٩٩٤م

24-المعاني الكبير.ط1،مطبعةدائرةالمعارف العثمانية،حيدرآبادالدكن،بالهند،1949م

25-المعارف.دارالهلال،والقاهرة١٩٣٤م

26-معشعراءالأندلس والمتنبي،غرسيةغومث،ترجمةد.الظاهرأحمدمكي،الطبعةالثانية ،دارالمعارف،القاهرة١٩٧٨م.

27- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس.تحقودراسة:محمدعلي شوابكة مؤسسةالرسالة،ودارعمّار،بيروت،١٩٨٣م

28-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:المقري التلمساني،دارالفكر بيروت،1998م.

29-وفيات الأعيان:ابن خلكان.دارصادر،بيروت،١٩٩٨م

30-يتيمةالدهر:الثعالبي.ط1،دارالكتب العلمية،بيروت/لبنان،1403هـ1983م